﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أعمال الكفّار ستكون يوم القيامة هباءً لا قيمة لها

لمّا ذكرَ تعالى أنواعَ عذابِهم في الآية السّابقة بيّن في هذه الآية أنَّ أعمالهم بأسرِها تصيرُ ضائعةً باطلة، لا ينتفعون بشيءٍ منها، وعند هذا يظهر كمالُ خسرانهم؛ لأنّهم لا يجدون في القيامة إلّا العقاب الشَّديد، ووجدوا كلّ أعمال الدّنيا قد بطَلت وضاعت، وذلك هو الخُسرانُ الشَّديد، والضّلالُ البعيد[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرَمَادٍ﴾: جذر الكلمة هو (رمد)؛ يُقال: رَمادٌ؛ والرَّماد: دُقاق الفحم، وما هبا من الجَمْر فصار دُقاقًا[2]، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾، ورَمِدَتِ النّارُ: صارت رَمادًا، وعبّر بِالرَّمَدِ عن الهلاك كما عبّر عنه بالهُمود، ورَمِدَ الماء: صار كأنّه فيه رماد لأُجونِه، والْأَرْمَدُ ما كان على لون الرّماد[3].

2) ﴿عَاصِفٖۖ﴾: جَذر الكلمة هو (عصف)؛ العَصْفُ الّذي يُعْصَفُ من الزّرع، والعَصْفُ: ما على ساق الزّرع من الورق الّذي يبس فتفتّت[4]. أو هو عندنا دقاق التّبن الّذي إذا ذرّي البَيدر صار مع الرّيح كأنّه غبار[5]. قال تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ [الرّحمن: 12]،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80 - 81.
(2) ابن سِيده، المُحكم: (رمد).
(3) الرّاغب، المفردات: (رمد).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (عصف).
(5) الخليل، العين: (عصف).

﴿كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولٖ ۝٥﴾ [الفيل: 5]، و﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22]، وعاصِفَةٌ ومُعْصِفَةٌ: تَكْسِرُ الشَّيءَ فتجعله كَعَصْفٍ، وعَصَفَتْ بهم الرّيحُ تشبيهًا بذلك[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـانُ مـصـير أعـمـال الـخـير الّـتـي قـدّمـهـا الكافر المعاند

قد يتبادر إلى الذِّهن سؤالٌ عن أعمال الخير الّتي كانوا يعملونها كصلة الأرحام وعتق الرِّقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجارة، وغير ذلك من صنائعهم، ألا تشفعُ لهم يوم القيامة فتخفّف عنهم من عذاب النّار؟ فجاءت هذه الآية لبيان حبوطها وذهابها هباءً منثورًا؛ لأنّها لم تأتِ على أساسٍ سليم من معرفة اللّه، والإيمان به، إذ لم تكن لوجهه سبحانه فشبّهت في الآية برماد طيّرته الرِّيح العاصف ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ أيْ: لا يرون له أثرًا من ثواب، كما لا يقدر من الرَّماد المطيّر في الرّيح على شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ إشارةً إلى بُعد ضلالهم عن طريق الحقِّ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

لا تنفع أعمالُ أهل الكفر يومَ القيامة؛ لأنّها ليست لله

الجملةُ من قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ مستأنفَة بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنّه قيل: كيف مَثَلُهم؟ فقيل: كَيْتَ وكَيْتَ[3]، فالأولى تناولت حالَ الّذين كفروا في النّار، والثّانية تناولت مثَلَ أعمال الخير الّتي عملوها في الدّنيا كصلة الرّحم، وقِرى الضّيف وغيرها.

(1) الرّاغب، المفردات: (عصف).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/514.
(3) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

بلاغةُ التّشبيه التّمثيليّ في الآية:

تحتاجُ الأعمالُ إلى نيّة حُبِّ الله ورسوله لتأخذَ قيمتَها ووزنَها

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ مبتدأ خبره محذوف؛ أيْ: فيما يُتلَى عليكم صفتهم الّتي هي في الغرابة كالمَثَل كما ذهب إليه سيبويْه[1]. والتّشبيهُ التَّمثيليُّ هو ما كان وجه الشّبه فيه صورةً منتزَعةً من مُتعدِّد، ولا يشترط فيه تركيب الوجه سواء أكان الوجه فيه حسِّيًّا أم عقليًّا، حقيقيًّا أم غير حقيقيّ، فيكون المُشبّه هو (مثَلُ أعمال الّذين كفروا) والمُشبَّه به: (رمادٌ اشتدّت به الرّيحُ في يوم عاصف). فأعمالُهم الحسنةُ في الخير مهما كثُرت فإنّها فاقدةٌ لوزنها ولأهمّيّتها، وتكون كتلتها مثل رماد متطاير بأدنى ريح، فكيف إنِ اشتدّت به الرّيح؟ إنّها حتمًا ستكون هباءً منثورًا.

وعلى هذا يكون حاصلُ التّمثيل تشبيهَ أعمالهم في حُبوطها وذهابها هباءً منثورًا؛ لابتنائها على غير أساسٍ من معرفة الله تعالى، والإيمان به، فجاء تمثيلها برمادٍ طيّرته الرّيحُ العاصف وفرّقته، وهذه الجملة فَذْلَكةُ ذلك، والمقصود منه بيان عدم رؤية الأثر لتلك الأعمال، وفيه تهكُّمٌ بهم، ذلك - أيْ: ما دلّ عليه التّمثيلُ دلالةً واضحةً من ضلالهم مع حسبانهم أنّهم على شيء - هوَ الضَّلالُ البَعيدُ عن طريق الحقّ والصّواب، وقد تقدّم تمامُ الكلام في ذلك غير بعيد[2].

المُراد بقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

تتمايز الأعمال بنيّات أصحابها

"المُراد بأعمالهم ما هو من باب المكارم كصلة الأرحام وعتق الرِّقاب، وفداء الأُسارى، وقِرى الأضياف، وإغاثة الملهوفين، وغير ذلك. وقيل: ما فعلوه لأصنامهم من القُرَب بزعمهم. وقيل: ما يعمُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.

هذا وذاك؛ ولعلّه الأوْلى"[1]. فما كان للّه دام واتّصل، وما كان لغيره ضرب اللّه فيه مثَلًا عظيمًا، فما تلك الأعمال لا كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يومٍ عاصف.

نكتة تنوُّعُ أوجه إعراب ﴿مَّثَلُ﴾:

تنوّعُ آراء المفسّرين في أوجه الإعراب

ذهب الكِسائيُّ والفرّاء إلى أنّ ﴿مَّثَلُ﴾ مُقحَم، وقال الحوفيّ: هو مبتدأ و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبره، و﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدل اشتمال من المبتدأ؛ وجوّز الزّمخشريّ أن يكون بدلًا من ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لكنْ على تقدير: (مثَلُ أعمالهم)؛ فيكون التّقدير: مثَلُ الّذين كفروا مَثَلُ أعمالهم كرماد[2]، بينما ذهب الثّعلبيّ إلى أنّه[3] بدل الكلّ من الكلّ، وذلك لأنّ مثَلَهم، ومَثَل أعمالهم متّحدان بالذّات؛ فيكون بدل اشتمال أيضًا كما أشرنا آنفًا؛ لأنَّ مَثَل أعمالهم كونها كرمادٍ ومثلهم كون أعمالهم كرمادٍ، فلا اتّحاد لكنَّ الأوّل سببٌ للثّاني، والرَّماد معروف[4]. وذكر صاحب الكشّاف أنّ قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويْه، وتقديره: وفيما يُقصُّ عليك ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، ويجوز أن يكون المعنى: مثَلُ أعمال الّذين كفروا بربّهم، أو تكون هذه الجملة خبرًا للمبتدأ؛ أيْ: صفةُ الّذين كفروا أعمالُهم كرماد، أوتكون ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدلًا من جملة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5].

سِرُّ مجيء جملة الصّلة بوصف الكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكافر هو الّذي يطمس الحقيقة ويأباها

ضُرِبَ هذا المَثَلُ لبيان حال الكفّار الّذين أنكروا الرّسالات وتوجّهوا بالتّهديد لرسلهم بإخراجهم من أرضهم أو العَوْد إلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513.
(3) الثّعلبيّ، الكشف: 5/311.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/514.

ملّتهم، فأهلكهم الله بأعمالهم وما يستحقّون، وقد أطلق صفة الكفر عليهم؛ لأنّ أعمالهم كانت تروم طمس الحقّ ممّا جاءت به الرّسل، فكان هذا الموضع تكرارًا لصفة الكفر عن موضع سابق، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ فكرّر وصف الكفر عليهم لتوكيدِ هذه الصّفة، وانطباقها على أقوالهم وأفعالهم، وتلازمها فيهم.

غرضُ التّعبير عن الكفّار بالاسم الموصول ﴿بِرَبِّهِمۡۖ﴾:

تكرارُ الاسْم الموصول بعد أن بيّن أقوالَهم وأفعالَهم بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، فجاء وصفُ حال هؤلاء بالكفر، وفائدةُ الاسْم الموصول التّعريضُ بأفعالهم وأقوالهم؛ لأنّهمُ اعتمدوا أسلوبَ التّكذيب القائم على التّهديد والوعيد، وقصدُهم من ذلك طمسُ الحقِّ الّذي جاءت به الرّسل عليهم السلام.

التّعريضُ بالأفعال الشّائنة الّتي تؤدّي إلى تزييف الأمور

دلالة الباء في قوله: ﴿بِرَبِّهِمۡۖ﴾:

أتت باء الجرّ في قول المولى ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ للإلصاق والاختلاط[1]، والإلصاق هُنا مجازيٌّ، فإنّ كُفر أولئك لا يكون إلّا بالله سبحانه، وهم يُنكرون كلّ ما يأتيهم من الله بالرّسالات والرّسل، وهي قضيّة عَقَديّةٌ عُظْمَى، فمن شروط الإيمان التّوحيد، فمَن كفر بالتّوحيد، وأشرك بالله غيره فلا إيمان له قطعًا، فانتفاءُ الإيمان يكون بسبب الشّرك بالله، فيكون السَّبَبُ الأوّل لكفرهم هو إنكارهم ألوهيّة الله سبحانه.

يكفر المُكذّبون بجميع ما أتى من جهة الرّسول

نكتة التّعبير بلفظ (رَبّ):

يُشعِر التَّعبير بالرّبوبيّة في الآية الكريمة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ بالعناية والرّعاية، وأنّ من شأن هذا اللّفظ أن يستوجب طاعةَ وحبَّ هذا الرّبّ الّذي يُصلِحُ رعيّته، ويعتني بهم، تمامًا كما

الكافرون يؤمنون بالرّبوبيّة، ولا يؤمنون بأحقيّة الله بالعبادة

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

يقوم ربّ الأسرة بالعناية بأُسرته؛ لذا فإنّ تذكيرهم بالرّبوبيّة في هذا الموضع فيه امتنانٌ وتذكيرٌ لهم بأنّه حريٌّ بأن يُطاع مثلُ هذا الرّبّ وألّا يُعصَى، فكيف يكفرون به؟!

نكتةُ فصل قوله ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ وإعرابه:

أعمالُ الكافرين تزول وأجسادُهم خالدة في النّار

لو جاء البيان القرآنيُّ على نحو: (مثَلُ الّذين كفروا وأعمالُهم) لأفاد ضمّ الأعمال إلى الّذين كفروا أنفسهم، ولكان المصيرُ للكفّار والأعمال واحدًا، ولكنّ هذا لا يُراد في الآية؛ لأنّ أعمالهم ذهبت وتلاشت، بينما الكفّارُ أنفسُهم سيكونون خالدين في النّار يوم القيامة، فلن تتلاشى أجسادُهم، وسيُحيط بهم الموتُ من كلّ مكان، ولا يموتون، ليذوقوا العذاب، فقوله سبحانه: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ لبيان مثَلِهم ومثَلِ أعمالهم، ورجّح ابن عطيّة كون ﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأ وهذه الجملة خبره[1].

معنى الكاف في قوله ﴿كَرَمَادٍ﴾:

أعمالُ الكفّار لا وزنَ لها ولا قيمة

الكافُ تُفيد التّشبيه، وما ذُكر لها من معانٍ أخرى ترجع في حقيقتِها إلى معنى التّشبيه، فقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾؛ أيْ: إنّه شبّه أعمالَهم برماد، ووجهُ الشّبَه فيه خفّتُه وتطايرُه بأدنَى نَسمة هواء، أمّا إن تعرّضَ لريحٍ عاصف، فإنّه لن يبقى له أثرٌ حتمًا.

الغرضُ من تنكير ﴿كَرَمَادٍ﴾:

تشبيهُ الأعمال بأهون الموجودات

تنكيرُ ﴿كَرَمَادٍ﴾ هنا للتّحقير من شأن ما توصف به أعمالُهم أو ما تُشبّه به، فهي مثل رمادٍ لا قيمةَ له في هذه الدّنيا تُفرّقه الرّيح فلا يكون له شأن. ولعلّ الرّماد هو أهون الموجودات ممّا عرفه الإنسان، فكذلك ستكون أعمالُهم في الآخرة.

بلاغةُ التّشبيه التّمثيليّ ﴿كَرَمَادٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/331.

الـكـافـرون يخلدون في النّار وأعمالهم تزول وتتلاشى

بِهِ ٱلرِّيحُ﴾. وحاصلُ التّمثيل: تشبيهُ أعمالهم في حُبوطها وذهابها هباءً منثورًا لابتغائها على غير أساسٍ من معرفة الله تعالى والإيمان به وكونها لوجهه برمادٍ طيّرته الرّيحُ العاصفُ وفرّقته، فالمُشبّه مُركّب، وهم الّذين كفروا وأعمالُهم، والمشبَّه به الرّماد، ووجه الشَّبه أنّ الرّيح العاصفَ تُطيِّرُ الرّمادَ وتُفرِّقُ أجزاءه، كما أنّ الكفر يُحبط الأعمال[1]. وتأتي بلاغةُ التّشبيه التّمثيليّ المُضمّن في التّشبيه الأوّل، أنّه جعل الأعمال في تشبيه داخليّ، وجعل مثَلَ حال الكافرين في تشبيهٍ تمثيليّ أوسعَ وأعمّ، وذلك لتُفصلَ الأعمالُ عن الأشخاص، فلكلٍّ مصيرٌ خاصٌّ به، فالأعمالُ تفقد قيمتَها وتتحوّل إلى الشّيء المعدوم، بينما يبقى الكافرون في عذابٍ وخلود.

أوجُهُ الشّبَه بين أعمال الكفّار وبين الرّماد:

تـتـعـدَّد أوجُـهِ الشّبَه بين الكُفّار وبـين الـرّمـاد المتطاير

في قول المولى ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ شُبّهت أعمالُهم بالرّماد؛ لأنّ الرّمادَ يتطاير بأدنى ريح، فكيف بريحٍ عاصف؟!، فلا تُبقي له أثرًا، وكذلك أعمالهم لا يبقى منها أثرٌ نافعٌ لهم يوم القيامة؛ لأنّها لا قيمةَ لها، ومن ثَمّ ستذهب وتتلاشى، وسوف يأتيها أمر الله فتتناثر فلا يُعرَف لها قيمةٌ ولا قرار ولا أثَر، ثمّ إنّ اختيار الرّماد دون غيره من الموادّ كالرّمل مثلًا؛ لأنّ ذرّاتِ الرّماد نتجت عن حطام الشَّيء واحتراقه، فنتاج أعمالهم هي الرّماد؛ لأنّ أعمالهم تحترق فلا يبقى من أثرها إلّا الرّماد. والرّماد فاقدٌ للكتلة فلا وزنَ له، وهو كأعمالهم الفاقدة لقيمتها قد أحرقها شِركُهم وكفرُهم، فهو تشبيهٌ مركّبٌ لتعدّد أوجه الشّبه فيه.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/174.

دلالة الباء في قوله ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾:

إذا بلغت الرّيح ذروتها لم تَذَرِ الرّماد على حاله بل تبدّده

الباء في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ للإلصاق؛ والمعنى أنّ الرّيح لمّا وصلته بلغت ذروة شدّتها، ومعلومٌ أنَ ذرّاتِ الرّماد دقيقةٌ غاية الدّقّة، خفيفةٌ غاية الخفّة، فلمّا اشتدّت الرّيح بها، لم تُبق لها أثرًا. وذكر الآلوسيّ أنّ الباء للتّعدية أو للمُلابسة، وجوِّزَ أن يكون من الشّدّة بمعنى القوّة؛ أيْ: قويت بمُلابسة حمله[1].

نكتة تقديم شِبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

الـرّيـحُ تختصُّ الـرّمـاد بـشدّة عصفها وقوتها الّتي وهبها الله إيّاها

أصل الجملة: (اشتدّت الرّيح به) لكنّه قدّم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ للتَّخصيص، فكأنّ شدّة الرّيح قد اختصّت ذلك الرّماد بعصفها وقوّتها. فلم تُبقِ منه ومن آثاره شيئًا، فكذلك أعمالهم تذهب أدراج الرّياح، فلا يبقَى من آثارها شيء ولا يكون لهم في الآخرة منها نفع.

دلالة تنوع القراءات في ﴿ٱلرِّيحُ﴾:

الأصـــــل في التعبير القرآنيّ أن تأتي (الرِّيح) في معرض الشّرّ و(الـرّيـاح) في الخير

قرأ نافع وأبو جعفر (الرِّياح) على الجمع، فجُعل العصفُ لليوم، وهو لما فيه، وهو الرّيح أو الرّياح[2]. وتفسير قراءة الرّياح هنا مع أنّ الموضع للعذاب؛ هو أنّ الرّياح هنا تكون في أجواء الحياة الطّيّبة؛ لكنّها اشتدّت بذلك الرّماد واختصّته بذلك، فأزاحتْه عن الأماكن الطّيّبة، فلا يبقى منه إلّا ما يستحقّ البقاء من الجمال والحيويّة، فهي تمثيلٌ أيضًا لقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ ومناسبةٌ له. بينما قوله: ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فهي على الإفراد، ولفظ الرّيح ناسب حالة العقوبة والعذاب، وما تؤدّيه هذه الرّيح من إذهاب الرّماد المُشبّه بأعمالهم.

معنى (اللّام) في ﴿ٱلرِّيحُ﴾ و(الرّياح):

اشـتـدادُ الرّيـح لا يُستهانُ به لما تُحدثُه من الضّرر والإيذاء

التّعريف في: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ عهديٌّ على الرّيح الّتي نعرفها، وأفادَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/81.

التّهويلَ من شأن هذه الرّيح الّتي قد أُرسِلَتْ بأمر اللّه لتشتدّ في موضع الرّماد الّذي يتطاير بأهون الرّياح، فإنّ أصاب الرّماد فلن يبقى منه شيء، فكذلك أعمالهم.

بلاغة التّعبير بالمجاز في ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾:

شـــدّةُ الـرّيـح قوّتها وهي دليلُ تأثيرها

إسناد العصف لليوم في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ هو من قبيل المجاز العقليّ، فالعصفُ اشتداد الرّيح، وصف به زمان هبوبها على الإسناد المجازيّ العقليّ للمبالغة لعلاقة الزّمانيّة. و(اشتدّ به) من (شدّ) أو من (الشّدّة) بمعنى القوّة؛ أيّ: قويت بمُلابسة حمْلِه. وإسناد الشّدّة إلى الرّيح ليُعلم أنّها ريحٌ قد أُرسلت خاصّةً لتفعل فعلها في هذا الرّماد المتناثر[1].

الغرض من تنكير ﴿يَوۡمٍ﴾:

احـتـمـالاتُ ما يقع ويحدث في ذلك اليوم

التّنكيرُ في قوله ﴿يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ تعظيمٌ لشأن ذلك اليوم، وتخويفٌ من مآله، لجهالة ما قد يقع فيه من الأحداث، فأفاد التّنكيرُ زيادةَ تصوّرات المُتأمِّل فيه من عظيم تلك الأحداث، وآثارها وأضرارها.

بلاغة فصل قوله ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾:

التّـأكـيـدُ على أنّ الـكـافـر لن يكسب شيئًا ممّا عمل في الدّنيا

قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ فيه إجمالٌ بعد تفصيل، فبعد أن ضرب المَثَل وعُلم منه أنّهم لن يكسبوا من أعمالهم شيئًا؛ لأنّها أصبحت متناثرةً، فقد أخذتها الرّيح العاصف، تمَّمَ التّعبير بقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ توكيدًا لما عُلم سابقًا، فأجمَلَ بعد أن كان قد فصّل، فيكون بين الجملتيْن كمال اتّصال، ويمكن حملها على الاستئناف البيانيّ على أنّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ عن حالهم.

المُتشابه اللّفظي بين آيتي البقرة وإبراهيم:

اخـتـلافُ خطاب المؤمن والكافر نـــابـــع مـن عقيدتهما

في سورة إبراهيم نجد أنّ السّياق يتحدّث عن أعمال الّذين

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/309.

كفروا: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ لأنّهم كانوا قد كسبوا بأعمالهم ثناءَ النّاس وقَبولهم، فقدّم الكسب، أمّا في سورة البقرة، فالحديث عن الّذين يُبطِلون أعمالهم بالمَنّ والأذى ومن ثَمّ قال: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: 264]؛ فأخّر الكسب؛ لأنّهم أنفقوا ولم يكسبوا حتّى مدح النّاس فهم أعطوا أموالهم مع المَنّ والأذى، فإن أخذ منها المحتاج والفقير فلن يذكر صاحبها بخير، وذلك على خلاف موضع سورة إبراهيم، لذلك فقد أخّر الكسب هنا.

دلالة التّعبير بالمضارع: ﴿يَقۡدِرُونَ﴾:

التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾، أفاد دلالةَ الفعل على الحال والاستقبال، فإذا جاءهم عذاب يوم القيامة، فإنّهم لن يكسبوا من أعمالهم شيئًا، فتنتفي القدرة لديهم على الكسب من أعمالهم الّتي ربّما سيذكرونها وهم في أشدّ الحاجة إليها فيحاولون الكسب منها فلا يستطيعون، وهي ما عملوه من أعمال البرِّ كالصّدقة، وصلة الرَّحم، وبرّ الوالدين، وإطعام الجائع، فتُبطَل وتُحبَط بسبب كفرهم بالله، ولولا كفرهم لانتفعوا بها[1]. فتكون قد مُحيت وتطايرت من موازينهم كما تطاير الرّماد في اليوم العاصف.

يحاولون التكسّب من أعمالهم لكنّها قد مُحيت من موازينهم

معنى (من) في قوله ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾:

(من) تفيد التّبعيض؛ فهم لا يقدرون على تحصيل بعض ما فعلوه مهما قلّ ذلك الشّيء، ولعلّه يريد الأعمال الصّالحة وفضائل الأعمال، فقد ذهب بها كفرهم، وإنكارهم على الأنبياء والرّسل.

يستحيل عليهم تحصيل بعض ما فعلوه

دلالة (ما) وموقع الجملة بعدها، ونكتةُ تقديم ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾:

الاسم الموصول (ما) بمعنى (الّذي)، ويقع على ذوات ما لا يعقل،

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

وعلى صفات مَن يعقل، كما ورد في الآية الكريمة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾، وفي تقديم جملة: ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ الاهتمام بقضيّة الكسب، والدّلالة على أنّهم كانوا يظنّون أنّهم سيكسبون جرّاء هذه الأعمال، وتُحقّق لهم مجدًا ومكانة، لكنّهم يُفاجَؤون بأنّهم لا يُحقّقون منها كسبًا مهما كان قليلًا.

لا يحقّقُ الكُفّارُ مكسبًا يوم القيامة مَهْما كان قليلًا

الغرضُ من تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

تنكيرُ ﴿شَيۡءٖ﴾ لفائدة التّهوين والتّحقير؛ فهم لا يقدرون على أدنى ما يمكن أن يحصل عليه إنسانٌ في الآخرة أجرًا لعمله في الحياة الدّنيا؛ فيجدون ما عملوه قد صار هباءً منثورًا، ويخرجون من هذه الحياة صفر اليدَيْن، والشّيءُ هو أقلّ القليل من القول أو الفعل.

التّعبيرُ عن أهون ما يوصَف من أعمالهم

بلاغة فصل ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾:

الفصل هنا؛ لأنَّ جملة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ والّتي قبلها وهي قوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ هو أنَّ الجملة الثّانية بيان لما قبلها، فيكون بين الجملتيْن كمال الاتصال، ولذلك كان الفصل، ويمكن أيضًا أن يكون سبب الفصل شِبه كمال الاتّصال (الاستئناف البيانيّ) بأن كانت الجملة الأخيرة جوابًا عن سؤالٍ مقدّر بعد الجملة الأولى مفاده: ما حالهم عند ذلك؟ أو ما مصيرهم؟

الضّلالُ كلُّ الضّلال في السّير في طريقٍ ينتهي بصاحبه إلى الهلاك

الغرض من التّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أفاد التّعبيرُ باسم الإشارة تنزيلَ الأشياء المعقولة أو غير المُشاهَدَة منزلة الأشياء المحسوسة المُشاهَدة، كما أفاد التّعبيرُ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيد للتّحقير، فالإشارة للبعيد يُقصَدُ منه الدّونيّة والانحطاط، وهو ما يناسب قوله تعالى: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾.

الإشارةُ إلى ما سيحصل للكافرين يوم القيامة

بلاغةُ القصر في: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ قصرٌ موصوف على صفة،

وهو من قبيل قصر القلب؛ إذ لم يكن مُتصوّرًا لدى الّذين كفروا ما سيصيبهم يوم القيامة من العذاب المهين؛ وأنّهم لن يقدروا على شيءٍ ممّا كسبوا، فذلك الحال هو الضّلال المبين.

تصوّراتُ الكافرين عن حالهم، ثمَّ انقلاب ذلك التّصور

معنى (اللّام) في قوله ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾:

من فوائد التّعريف بـ (ال) القصرُ حقيقة أو تجوّزًا بقصد المبالغة؛ وفي قوله: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ هو من قبيل التّجوّز، ويمكن أن يكون على الحقيقة، فلا يستحقّ أن يوصَفَ حالٌ بأنّه ضلالٌ بعيد أكثر من حال هؤلاء.

المبالغةُ في وصف ضلال الكافرين يوم القيامة

نكتةُ وصف الضّلال بالبُعد:

وصف الضّلال بالبُعد استعارةً مَكنيّة على تشبيه الضّلال بشيٍ من شأنه أن يبتعد؛ لأنّ الضّلال لا يكون قريبًا أو بعيدًا، ولكنّه ضلال يذهب بصاحبه إلى ساحة البُعد عن اللّه وعن رضاء اللّه سبحانه، وفائدته تهويل ما آل إليه حال هؤلاء الكافرين الّذين تجرّأوا على الرّسالات السَّماويّة والرّسل، وأنكروا عليهم دعوتهم، فآل حالهم إلى ما وصفته الآية، فهم في ضلالٍ بعيدٍ لا ينتهي؛ لأنّهم قد هلكوا على الكفر.

الضّلالُ البعيدُ يكون للكافرين بعد الموت فلا يمكن لصاحبه أن يعود عنه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّيح والرّياح:

الرّياح جمع ريح، والرّيح نسيم الهواء، ونسيم كلّ شيءٍ[1]، واستقراء أساليب القرآن يُظهر لنا أنّ لفظ الرّيح والرّياح؛ كلٌّ منها يرد في موضعه اللّائق، في مقامها، فالمواضع الّتي وردت فيها لفظة الرّياح نجدها تدلّ على معاني الخير والرّحمة[2]، وإظهار فضل اللّه على خلْقه. وما كان من عذابٍ فقد جاء على المفرد (ريح)، ومردّ ذلك أنّ رياحَ الرَّحمة مختلفةُ المنافع، على عكس ريح العذاب.

وردت الرّيح والرّياح في القرآن الكريم بما يناسب المقام

(1) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(2) الجاحظ، البيان والتّبيين: 1/20.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»